فلسفة النشوء والارتقاء

[الدكتور شبلي شميل اعرف من ان يعرَّف . قرأ كتاباته ابناء العربية في القطرين المصري والسوري وفي كل الاقطار التي وصل اليها السوريون وهي تتناول كل المواضيع الطبيَّة والاجتماعية والعملية والفلسفية . واسلوبهُ فيها اسلوب عالم حرّ يبحث عن الحقائق في كتب الثقات من العلماء والفلاسفة ويوازنها ويمحصها الى ان يقتنع بصحتها فيذكر خلاصتها ويبني عليها احكاماً صائبة . وقد وفق الى اتقان العربية والفرنسوية فسهل عليهِ ادراك ما يكتبهُ علماء اوربا والتعبير عنهُ بالعربية الفصحى . وهو من ابلغ كتابنا ومن البارعين في الانشاء بالفرنسوية ايضاً . وقد عانى التأليف منذ نحو اربعين سنة الى الآن وتنثات قلمهِ منثورة في كتبهِ التي الفها او ترجمها وفي المجلات والجرائد ولاسيما الشفاء والمقتطف . وقد اقترح عليهِ جمهور كبير من مريديهِ ان يجمع كل ما كتبهُ الى الآن في كتاب واحد ولاسيما ما كان منهُ منثوراً في الصحف اليومية التي قلما تحفظ حرصاً على ما فيهِ من الفوائد فلبى طلبهم . وسيكون هذا الكتاب في مجلدين كبيرين او اكثر . وقد اطلعنا الآن على المقدمة الفلسفية التي انشأها لتنشر في صدر شرح يختبر فرأينا ان نثبت هنا خاتمتها بالحرف الذي طبعت بهِ للدلالة على شكل الكتاب وكيفية بحث الدكتور شميل فيهِ . وسيكون هذا الكتاب خزانة فوائد علمية وادبية وفلسفية واجتماعية لا تستغني عنهُ مكتبة من مكاتب ابناء العربية . وهاك ما ننقلهُ من المقدمة وهو عن وحدة القوى الطبيعية ووحدة كل ما في الطبيعة]

***

والتوحيد في الطبيعة ينحو بنا نحواً آخر لا تقدَّر الغاية التي قد يبلغ اليها ولا يجوز الجزم بالوقوف فيها عند حدّ . ولقد بدا لنا اليوم كثير من هذه الاسرار التي لم يحلم آباؤنا بها والتي لو رأوها لعدوها من الخوارق. وذلك بناء على ناموس التحوُّل الذي لا يقتصر على الاحياء فقط بل يشمل الطبيعة كلها. حتى لم يعد يجوز الاعتقاد بشيء ثابت فيها لا العناصر ولا الجواهر الفردة نفسها . وحتى صارت اشعة رتجن وخصائص الراديوم غير خاصة بنوع من مظاهر المادة بل هي عامة على اصناف المادَّة كلها اذا توفرت لها الشرائط التي تبدو فيها هذه الخواص وسواها مما لا نعلمهُ حتى الآن . ولقد نظر بعضهم الى هذه الخصائص كأنها قوى جديدة غير القوى المعروفة . ولا يصحُّ

ذلك الاَّ اذا صحَّ اعتبار القوى المعروفة كالحرارة والنور والكهربائية قوى ممتازة منفصلة بعضها عن بعض لا في الظهر بل في الجوهر أيضاً. ولكنا اذا اعتبرناها قوى متحوِّلة وعرفنا ان في الامكان ردَّها بعضها الى بعض قبل هذا الفصل في القوى الاخرى كأشعة رنتجن واشعة الراديوم والاشعة الكهاوية وسواها مما هو معروف ومما لم يعرف حتى الآن لا يجوز. ولا يجوز اعتبار هذه القوى الجديدة الاَّ من قبيل تحوُّل المادة وقواها كما في تلك. كما انهُ لا يجوز بناء على ناموس تلازم المادَّة والقوَّة اعتبار هذين المظهرين اي المادة والقوَّة شيئين ممتازين في الجوهر يثبتان ناموس الثنية في الطبيعة. ولقد اشرت الى هذه الوحدة واطلاق مذهب التحوُّل على الطبيعة الصامتة نفسها في مقالة نشرتها في جريدة البصير في اول عهد صدورها منذ نحو اربع عشرة سنة حيث قلت في ردّ القوى كلها الى الحركة والمادَّة الى الهيولى بعد ان اشرت الى تلازمهما ما نصهُ « والهيولى فرضٌ لبسط المادَّة والحركة بحقيقته ثابتة فالحركة اصل الكل » اه

***

وهذه النظريَّة الاستقرائيَّة قد خطا العلم فيها من ذلك العهد الى اليوم خطوةً جعلتها من المسائل العلمية البحتة لا من المسائل الاستقرائية الفلسفية فقط. كما نقل مذهب النشوء والارتقاء القول بتحول الاحياء من مدار النظر للاسرك وجفروى سنتيلير الى مدار التحقيق العلمي لداروين

واتجه نظر العلماء الى هذه المسألة على اسلوب اقرب الى العلم منهُ الى الفلسفة في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن وقد ذهب غوستاف لبون في مؤلف لهُ سماهُ « نشوء المادة » الى نفي ثبوت الجوهر الفرد ثبوتاً مطلقاً اذ اعتبرهُ مخزناً لقوى هائلة او هو متجمد قوى وانطلاقها تبديد لمادِّيَّته. وذهب الى ان المادَّة بناء على ذلك تتلاشى خلافاً للمقرَّر في العلم من ان المادة لا تتلاشى. والحقيقة انها تتلاشى في القوة التي تتحول اليها

وهذا القول خطير اليوم. وهو في مبدئهِ ليس بدعة في العلم اذ يطلق مذهب النشوء في الاحياء على الطبيعة كلها وعلى المادة نفسها اذ يجعلها كالاحياء تنشأ وتنمو وتموت

مثلها . وبنفي الفصل بين المواد القابلة الوزن والمواد غير القابلة الوزن اذ يجعلها تنشأ كلها من مبدإ واحد هو الاثير الفرضي المسلَّم به في العلم اليوم تسليماً مطلقاً (١) ولكن ذلك لا يجعل قولهُ في تلاشي المادة وخلق القوى صحيحاً . وان كان قولهُ في نشوء الجوهر الفرد واعتباره مخزن قوى متجمدة وتلاشي المادة في قواها تلاشياً بالتحول ذا نتائج لا تقدَّر فائدتها في العلم اليوم بتوجيه النظر الى مثل هذا البحث الخطير . وسواء نشأ الجوهر الفرد من الاثير او تلاشى وتلاشت المادة معهُ في هذا الاثير نفسهِ فالاثير نفسهُ باقٍ لم يتلاشَ ويكون الجوهر الفرد حينئذٍ للمادَّة كالكرية الحيَّة للاحياء ويكون الاثير نفسهُ حينئذٍ للجوهر الفرد كالبزوتوبلاسما للكريات الحية . وسواء سمَّينا جوهر الكون الاصلي اثيرًا او هيولى والقوى المتحولة عنهُ قوة او حركة فالمعنى واحد وما هو الاَّ اختلاف الفاظ فقط والمهمُّ تحوُّل هذا الجوهر وانحصارهُ في واحد هو القوة او الحركة التي هي حقيقة ثابتة في العلم بخلاف الاثير او الهيولى التي هي فرض لجلاء الكلام وتقريبهِ الى الفهم . واولى بهذه القوة ان تكون حركةً وحركة على نفسها ليستطيع الجوهر الفرد ان يكون مخزنًا لها وهي بتلك القوة الماثلة المعروفة لنا والتي ينتظر

(١) اكثر الظواهر الطبيعية كالنور والحرارة والكهربائية الاشعاعية الخ يعتبر مقرُّها في الاثير . والجاذبية التي يتوقف عليها انتظام الكون وسير الكواكب يظهر انها مظهر من مظاهره . وكل الابحاث النظرية لمعرفة تكوين الجواهر الفردة مبنية على التسليم بان الاثير مصدرها . وهو ان كان فرضاً مزعوماً الاَّ ان القول به يظهر للبعض انهُ اثبت من القول بالمادة نفسها . وكان الاضطرار اليهِ شديداً لما ارادوا تعليل انتشار النور . ثم اعتبر كأنهُ ثابت بالامتحان لما ثبت (فرزنل) ان النور يعتبر بموجات شبيهة بالموجات التي تحدث عند سقوط حجر في الماء . وأكد ذلك بمقاومتهِ لموجات النور واعادة الظلمة بتسليط مقعر موجة نور على محدب موجة اخرى . ولما كان انتشار النور يحدث بالموجات كان لا بد لهذه الموجات من شيء تموج فيهِ فاطلقوا على هذا الشيء اسم الاثير

وقد زادت اهمية الاثير جدًّا لما تقدمت العلوم الطبيعية فصار تعليل اكثر الظواهر بدونهِ . فلولاه لما كان النقل ولا النور . ولا الكهربائية ولا الحرارة ولا شيء مما نعرفهُ . ولكان العالم صامتاً مبتاً او كان بحالة لا يمكننا ان نتصورها . ولو امكن بناء غرفة من زجاج ونزع الاثير منها بالكلية لما امكن للحرارة والنور ان ينفذا اليها وليبست في ظلمة دامسة . والراجح ان الجاذبية لغير معروفها على الاشياء التي ضمنها فلا يبقى لها سوى وزن او ثقل اه . (من كتاب تحوُّل المادة لجوستاف لبون)

من العلم ان يعرف عنها اشياء اعظم جداً ايضاً [1]

وليس في هذا القول شيء من المبالغة . خذ مثلاً الكهربائية التي ليست الا مظهراً من مظاهر تلك القوة العامة المنتشرة في الكون والمكونة له . فلقد كانت معلوماتنا بها في اول الامر ليست اكثر من معلوماتنا بخصائص الراديوم المعلومة لنا اليوم والمعترف اليوم انها موجودة في جميع المواد قاطبة . فاين معلوماتنا الكهربائية منذ نصف قرن من معلوماتنا بها الآن . اذكر اني القيت في سنة ١٨٧٠ خطاباً في الكهربائية وكأني اشرت فيه الى ما يتوقع منها اذ ختمته بهذين البيتين :

لقد نظر الانسان في البرق معجزاً فأخضعه لما اجال به طرفا
فذا المارد المحكي عنه بما مضى وهذا بساط الريح والقبع الاخفى

وما قلت توفي هذا عن تخيل شاعر بل عن توقع شاعر . وكم ارتقت الكهربائية من ذلك العهد الى اليوم [2] ومن يدري ماذا يكون مستقبل القوى الجديدة التي هلا

(١) صور المادة ليست سوى التوازن في الاثير والقوى المعروفة ليس ظهورها لنا الا فقد هذا التوازن فكأن الاثير عبارة عن القوة المحركة والمادة عبارة عن توازن في هذه القوة بعض الشيء . وهذا يفهم منه كيف يكون تحول المادة اذا فقدت هذا التوازن بظهور القوى المعروفة كالنور والحرارة والكهربائية الخ التي هي تحولات عنها والتي توازنها يؤلف المادة الخاصة بعض التحول . ولا تثبت هذه القوى شيئاً يربط المادة كأنها لم تتغير او تتغيرت تغيراً غير محسوس مع انطلاق قوى عظيمة مما عندنا عروض أقل شيء ينقدها توازنها النسبي الا اذا تجمعت هذه القوى تجمعاً عظيماً في القوة الام الصادرة عنها ولا تتجمع القوة الام هذا التجمع الهائل الا اذا كانت حركة وحركتها لولبية على نفسها ولذلك كان هذا التوازن الثابت في الجواهر الفردة العريقة في القدم وكانت الجواهر الفردة نفسها على صغرها تتزنا عظيماً قوى لا تحد وهذا اقوى برهان على كون الجواهر الفردة عبارة عن دوامات او حركات لولبية في الاثير نفسه . والفائدة الاولى المتحصلة من ذلك هو عظم المنافع التي تأتي لنا من معرفة طرق استخراج هذه القوى من مكامنها واستخدامها لمصالحنا والتمكن بها من التغلب على ما يبدو لنا من الصعوبات المتعذرة انها في حكم المستحيل اليوم

(٢) لقد عظم جداً شأن الكهربائية في هذه السنين الاخيرة . فهي قاعدة كل المفاعلات الكيماوية التي تبدو لنا كل يوم اكثر فاكثر انها تفاعلات كهربائية فهي اليوم تعتبر قوة عامة ترجع اليها مباشر القوى ومن المقرر ان النور هو احد مظاهرها . ومن الغريب العجيب ان مثل هذه القوة التي لها كل هذا الانتشار وكل هذه الاهمية بقيت مجهولة آلافاً من السنين . وهذا من اعظم الشواهد في تاريخ العلم على انه قد يمكن ان نكون محاطين بقوى عظيمة جداً من غير ان نشعر بها وهو كذلك من الادلة التي لا يستهان بها على ما في الجواهر الفردة من القوة الهائلة الكامنة ومن ارجحيتها ايضاً على تحول هذه الجواهر المادية بنفسها وتلاشيها في القوى المتحولة اليها

نعرف عنها الآن الاَّ القليل جدًّا متى عرفنا طرق ابرازها من مكامنها واستخدامها في مصالحنا مع علمنا الاكيد انها ليست الاَّ متحولات قوى كسائر القوى المعروفة. ولا يتأتى ذلك الاَّ من وراء البحث فيها باعتبارها انها قوى طبيعية خاضعة لناموس واحد عام لا قوى خارقة الطبيعة لا تقع تحت ضابط. لا من وراء اضاعة الوقت سدى بالتفسير والتأويل لاثبات اسرار التنزيل. ولو اكتفينا بذلك لما طار ريط ولا تكلم مركوني ولا ابدع اديصون واستولوا على السماء والهواء والارض

ولا استوى المرتحن محدودب قصفت يد المظالم منهُ الصلب ان قنا

ولا يستوي المرء الا اذا طمست يد العلم ما خطتهُ يد الجهل ولم يعد لهُ اثر في المدارس. بل صارت المدارس للفنون والصناعات والعلوم الصحيحة والطبيعية فقط. وفي مقدمتها مذهب التحوُّل الذي يوقفك على الصلة بين العوالم ويسهل عليك فهم تحوُّلاتها. ويمكنك من العلم بما تحويهِ من القوى الهائلة لاستخراجها من مكامنها. ويعرِّفك مقام الانسان الحقيقي في الطبيعة فيصرف المرء حينئذٍ كل جهدهِ للبحث في ما هو امامهُ ولا ينصرف عنهُ الى ما لا يجديهِ نفعًا ويحول دون ارتقائهِ في الحياة الدنيا. وبذلك يبين لك مزية فلسفة مذهب النشوء والارتقاء التي هي غرض هذا الكتاب على سائر المذاهب التي تقدَّمتهُ كما تراهُ مبسوطاً بالتفصيل في ما يأتي

شبلي شميل

مصر في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٩

وقد كان يصعب طبعًا جدًّا توليد الكهربائية في اول الامر وكنا ننظر اليها كحادث نادر كذلك واما اليوم فصرنا نجدها في كل شيء ونعلم ان اقل تصادم بين الاجسام الحيانية يولدها. والصور طبعًا اليوم ليس توليدها بل كيف نمنع توليدها في كل حادث يعرض. فسقوط نقطة ماء او تبخر جسم بحرارة الشمس او احتكاك يولد الكهربائية وكل تفاعل آخر بغير طبيعة جسم ما هو ينتج كهربائية. وهي موجودة في الهواء الجوي وقلما تكون قوتها فيه في حال الصحو تحت ١٥٠ فولطاً وتبلغ ١٠٠٠ عند حصول اقل ضباب و١٥٠٠ فولطاً عند سقوط اقل مطر وكما هي في التفاعلات الطبيعية هي ايضًا في تفاعلات الاجسام فما من تفاعل سببي في الانسجة الحية او التركيبات الحية الاَّ ويرافقهُ ظهور كهربائية (من كتاب تحوُّل المادة لنوستاف لبون)